أغراض اللُّغَة

الأغراض فى الجاهلية — الأغراض فى الإسلام

الأَغراض فى الجاهلية

لئن كانت المعانى التى ينتزعها الناس فى كل أمة وفى كل جيل ليصوروا بها إما يهجس فى نفوسهم ويقع تحت حواسهم ، خاضعةً لما يحيط بهم من الأمور المادية والمعنوية ؛ إن الأغراض التى يقصدون إليها من وراء ذلك خاضعة لذلك أيضًا ، أو هى أشد خضوعًا .

والعرب — كما رأيت — أمة تقسَّمها الحقد ، وتوزَّعها الدغل ، وسادت فيها الغرائز ، وقضت عليها حياتها وبيئتها أن تتقسم شعوبًا وقبائل يغزو بعضهم بعضًا ويأكل القوى منهم الضعيف ، والعلم أبعد شىء منهم ، والدين لا أثر له فى نفوسهم ، أولا مبادئ له تجعل له أثرًا فيهم فهم يقبلون على الشىء ترضى عنه غرائزهم وينصرفون عنه لا تتفق معه ميولهم ، وهم فى كل ذلك إنما ينظرون إلى مصلحة الفرد ، فإن مدوا نظرهم فإلى منفعة القبيلة ؛ لم يشعروا أنهم أفراد فى أمة ، إنما شعروا أنهم أفراد فى شعوب أو قبائل ، أو أفخاذ أو بطون ، ولم يكونوا يتجهون فى حياتهم إلى حماية مبدأ ثابت ، أو يرمون إلى تحقيق فكرة سامية ؛ فبينما يدعون إلى

السلام وإخماد نار الحرب . يدعون — جهدهم — إلى إذكائها وتأريث نار العداوة بها : فأخذت لغتهم من حيث أغراضها صور حياتهم ، فهي حفز إلى قتال . أو حضّ على إدراك ثأر . أو فخر يؤجج عداوة ويخلق خصومة . أو مدح يرفع . أو ذم يضع . . . إلى غير ذلك مما يتصل بحياتهم ونوع معيشتهم ومما يقتضيه لون بيئتهم .

وذلك أن الأغراض في كل لغة لكل أمة تتجه إلى ناحيتين . وتظهر في دائرتين : البيئة الطبيعية وهي ما يحيط بها من جبال وأنهار ونبات وحيوان ، والبيئة الاجتماعية وهي ما يهيمن عليها من نظم وقوانين ويبدو فيها من علوم ومعارف .

وأنت إذا تدبرت اللغة الجاهلية وجدت أكثرها وصفًا للبيئة الطبيعية وما يتصل بها — فهذا الشعر . أكثره وصف لما دق فيها وجل . وصف الأرض والسماء وأحداث الجو . والنبات والحيوان يدب على الأرض والطير يصعد في السماء . ثم هو يصف الحرب وأدواتها من القوس والسيف والرمح ويرثي القتلى ويدعو إلى التأسي بهم .

فإذا أردت أن تتبين فيه حياتهم الاجتماعية رأيته سجلا لعقائدهم وعاداتهم . يمدحون به من رأوا فيه مثلهم الأعلى . ويهجون من لم يخضع لما تواضعوا عليه من الكرم والجود والنجدة والبأس . وهم أيضًا يصورون فيه عواطفهم المحدودة . وحياتهم الخاصة في شربهم ولهوهم وصيدهم وحبهم .

والنثر — وهو لا يعدو المثل والحكمة والخطبة والوصية . والمفاخرة

والمنافرة — قد استُعمل فى بعض أغراض الشعر : استعمل فى الفخر والهجاء ، ويظهر هذا فى المفاخرة والمنافرة ، واستعملت الخطابة — وهى خاصتهم — كثيراً من الحث على الشر ، وأحيانًا فى الدعوة إلى السلم .

ويطول بنا القول فى غير جدوى لو رحنا نعدد مقاصدهم من كلامهم ونحن نعلم أن ليس للقوم مبادئ ثابتة ينصرونها ويدافعون عنها على اعتبار أنها أمور متقررة غير مرتبطة بشهوات النفوس إنما هى أجزاء متناثرة هنا وهناك ؛ فمن الخير أن تجمل فيما يأتى :

أولاً : كانت اللغة تستعمل فى الجاهلية فى أغراض المعيشة البدوية ووصف ما يلوح فيها من حل وترحال وحرب وسلم وما يتصل بذلك .

ثانيًا : كانوا يستعملونها فى إثارة المنازعات والمشاحنات وما يتبع ذلك من حضّ على إدراك ثأر وتفاخر بالحسب والنسب وتباهٍ بالنجدة والشجاعة وتهوين لشأن العدو ورفع لقدر القبيلة واعتزاز بالانتساب إليها ، وقلّما افتخروا بأنهم أمة ، ويظهر أن ذلك كان لأنهم لم يتوال عليهم من الأحداث ما يشعرهم بذلك .

ثالثًا : كانوا يقصدون بها إلى شرح مشاهداتهم وقص ما وصل إليهم من أخبار السابقين وما يخترعونه من قصص الجن وأحوالهم وأحيانًا يقصدون بها إلى العظة والعبرة إذا صفت نفوسهم ، وهبت عليهم نسمات الفطرة فدفعتهم إلى الاتعاظ والاعتبار ، وقد كان ذلك قليلاً إلى حد الندرة .

الأغراض فى الإسلام

جاء القرآن الكريم يخضع العرب لنظم خاصة ، وقوانين شاملة لكل نواحى الحياة تجعلهم أمة بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة ، وقد اشتمل على أغراض لا بد منها لتتجه الحياة وجهة ثابتة وتسير فى طريق مرسوم ، لا تساير فيه الغرائز ولكن تقاوم ، ولا يرمى إلى إسعاد طائفة من الناس ، وإنما يرمى إلى إسعاد الجميع ، ولا يجعل المجتمع الإنسانى قلقًا مذبذبًا ولكن يجعله قارًّا ثابتًا يسعى إلى غاية واحدة ، تضحى بمصلحة الفرد وحياته أحيانًا فى سبيل مصلحة الأمة ورفاهيتها .

وقد كانت مبادئ الإسلام وغاياته ترمى إلى تنظيم علاقة الإنسان بخالقه ، وإلى تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ؛ فكل المبادئ التى جاء بها ترجع فى النهاية إلى هذين الأمرين وتتصل بهما .

هذه المبادئ بذاتها ، ثم بما كان من حزم القائمين على حمايتها وتنفيذ رغباتها فى صدر الإسلام ، استطاعت أن تغير نفسيات العرب ، وأن تقلب نظام حياتهم رأسًا على عقب ، ثم أن تخلق للّغة أغراضًا جديدة لم تكن تعرفها من قبل ، وأن تتجه بالأغراض التى عرفتها وجهة أخرى ، أو تفسح لها مجالاً أوسع من مجالها ودائرة أرحب من دائرتها .

لم يكن الكلام عن الدين غرضًا من أغراض اللغة فى الجاهلية ؛ فإنهم

لم يكن لهم دين بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة . وإنما كان دينهم مزيجاً من أوهام وخرافات لا تحتمل المناقشة والجدل . بل لا يسمح فيها بمناقشة أو جدل . فحسب الشيء تقديساً واحتراماً عندهم . أن يكون من تقاليد القبيلة . ثم لم يكن لهذا الدين — على إمكان تسميته ديناً — حدود خاصة ولا مبادئ معينة يوضحونها أو يستفسرون عنها .

ولما جاء القرآن عنى أكثر ما عنى بالعقيدة . لأنها الأساس الذى يقوم عليه نظامه واشتراعه . فوجه أنظارهم إلى صفات الإله . وحقر أصنامهم وفتح لهم باب المناظرة والحجاج فوجدوه أضعف ما يكونون حجة ، فكمّ أفواههم وأخفت أصواتهم حتى أذعنوا له وانقادوا لحكمه — ومن ذلك بدأت المناظرة فى الدين والعلم تشق لنفسها الطريق . واحتضنها الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب التى نشأت فى الإسلام . دينية كانت أم غير دينية . وما زالت تتقلب فى أدوار وتنتقل فى أطوار . حتى انتهت أخيراً بعلم ذى أصول وقواعد . عرف بعلم آداب البحث والمناظرة .

كذلك احتاجت أوامر القرآن ونواهيه إلى الحث على التزامها واحتاجت حدوده ومبادئه إلى تبيينها للناس وتوقيفهم عليها فقام النبى عليه السلام بذلك أول الأمر وتبعه أصحابه رضوان الله عليهم ، من بعده ومعه ، ومن ذلك قام التابعون وتابعوهم بما كانوا يقومون به . والإسلام يتسع ميدانه فيشمل أمما كثيرة وشعوباً مختلفة . والعلم الدينى فى كل ذلك ينشر ويعلم وتتميز بعض مباحثه عن بعض . حتى انتهى ذلك بوضع العلوم الدينية وغير

الدينية من العلوم العربية . وكان من أغراض اللغة توضيح حقائقها وتبيين ما فيها .

ومن تلك الأغراض الجديدة الدعوة إلى القصد فى الدنيا . وعدم التهالك على طلبها . والإقبال على طلب الآخرة والرغبة فيما عند الله تعالى :

« ماعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ باقٍ » . « واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِرًا » .

وواضح أن هذا النوع لم يكن غرضًا فى كلام العرب القدامى ، وما جاء على ألسنة فريق منهم . على افتراض صحة ذلك . فشىء لا خطر له . ولا يصح أن يؤخذ على أن اللغة كانت تؤديه باعتباره غرضًا مقرراً ؛ وقد كان ذلك فى الجاهلية خطرات تعرض للنفوس فى بعض أحوالها . وكما لا يصح أن يسمَّى زهير مثلا فيلسوفًا لقوله :

رأيت المنايا خبط عشواء . من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمَّر فيهرم

حتى يدعى أن اللغة العربية عرفت الفلسفة فى جاهليتها ، كذلك لا يقال كان من غرض اللغة يومذاك . الدعوة إلى عدم الإمعان فى طلب الدنيا والاستمتاع بها لأن حكيماً جرى لسانه بشىء من ذلك ؛ وإلا فلا يكون شعب جاهل فى الأرض . بل لا يكون فيها شعب ليست لغته لغة فلسفة ، لأن كل أمة لا بد فيها من أفراد لهم استعداد خارق ، وبصيرة نافذة ،

يمكنانهم من الوصول إلى ما لا تعرف بيئتهم . فلا بد أن يراعى فى المعنى من المعانى أو الغرض من الأغراض ، وجد فى لغة أمة ، أن يكون قد عالجه كثير منهم وأن يكون مستوى هذه الأمة مما يسيغه ولا يتنافى معه .

وعليه ، فقد استمدت اللغة من القرآن هذا الغرض تؤديه إلى الناس على شكل متقرر ثابت ، وقد بلغ أن صار فناً له رجالات عرفوا به ، حتى فى الشعر الذى لم يكن موطناً لغير اللهو واللعب .

ثم إن حياة التحضر والاستقرار التى مهد لها القرآن الكريم ، اقتضت اختراع علوم ، وترجمة علوم من لغات أخرى ، وذلك لازمة الحضارة فى كل العصور ، وقد كانت اللغة وسيلة ترجمتها وفهمها وإفهامها ، فلا جرم كانت الترجمة فى كل فنٍّ من معظم اللغات ، غرضاً من أغراض اللغة . ولا جرم كان ذلك أثراً من آثار القرآن .

وكما أحدث القرآن أغراضاً لم تكن ، اتسعت به أغراض قد كانت ، واعتبر ذلك فى الوصف . فهم وإن كانوا قد وصفوا كل ما عرفوه مما يتصل ببيئتهم ، فإن ذلك كان شيئاً ضئيلاً محدوداً بالقياس إلى ما شهدوه بعد الإسلام ، فبعد أن كانت اللغة تصف الخباء والسيف والقوس ونحو ذلك ، وصفت المعاقل والحصون . وآلات القتال والحصار التى لم يكونوا قد عرفوها ، كما وصفت ألوان الطعام التى عرفتها الحضارة ، ومجالس الشراب ، على ما فيها من جديد فى كل شيء . ووصفت القصور الفخمة والبرك الجميلة ، وعلى الجملة تكاثرت مظاهر الحياة وتعددت فنونها

وألوانها ، فتناول الكتاب والخطباء والشعراء كل ذلك بالوصف ما دق منه وما جلّ ، واعتـبِـر ذلك بمثل قول ابن الرومى ، يصف خبّـازاً :

ما أنس، لا أنس خبّـازاً مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كـرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنـداح دائرة   فى لجـة الماء يرمى فيه بالحجر

ولعل هذا الباب : باب الوصف ، أبرز الأغراض التى تأثرت تأثراً ظاهراً بالحياة الإسلامية الجديدة .

كذلك القصص ، وقد رأينا أن قد كان عندهم منه شيء وإن كان ضئيلاً ، فإنه قد اتسع بما ذكر القرآن من قصص الأنبياء السابقين كقصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . وقد كان ذلك فى أسلوب أخّـاذ ، هاج النفوس ، ودفعها إلى الاستزادة منه ، وتعرف ما عند الأمم الأخرى كاليهود والنصارى حتى نصب قوم أنفسهم لذلك النوع ، منهم تميم الدارى ووهب بن منبه وكعب الأحبار . وقد نما القصص بسرعة وكثر فيه الكذب حتى إن الإمام عليـًّا كرم الله وجهه طرد القـُصّاص إلا الحسن البصرى لأنه العالم الذى كان يتحرى الصدق فيما يقصّ .

بقيت تلك الأغراض التى وجّـهها القرآن وجهة غير وجهتها الجاهلية ، وذلك ظاهر فى الشعر الذى كان يتغنى فيه إذ ذاك بالانتصار على القبيلة ، فقد تحول إلى التغنى بالانتصار على جيوش الفرس والروم ، والتمدح

بشجاعة المسلمين ؛ وكذلك تحولت الخطابة من حض على إدراك ثأر ، إلى حضٍ على نصرة المسلمين والجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وإن كان بنو أمية حولوا ذلك إلى مجراه الجاهلى فذلك شىء لم يدم وسرعان ما أخذ وجهته الإسلامية .

وعلى الجملة ، أحدث القرآن أغراضًا جديدة وسلك بالأغراض القديمة طريقًا غير طريقها ، وقلما بقى من ذلك غرض على حاله بعد الإسلام .